

عن تاريخ اللغة العربية (٢)

د. مسعود بوبو
جامعة دمشق

٣ - العربية والعصر الجاهلي *

المقصود بالعصر الجاهلي عند العرب ، الفترة الممتدة الى قرن ونصف او قرنين من الزمن قبل مجيء الإسلام ، وما سبق ذلك يكتنفه الغموض ، وغالباً ما يعرف بالجاهلية الأولى عند علمائنا . . . وأما المقصود بلفظة « الجاهلية » دلالةً فمختلف عما هو شائع عنها اليوم في أذهان الناس من انطباع عام ، لغوياً واجتماعياً . وعند البحث المدقق في كتب اللغة والنصوص يقف الباحث على معانٍ متعددة للجاهلية ، كالطيش ، والغضب ، والنزق ، أو السُّفَه والحُمق والحميَّة . . . ونستخلص دلالتها المتطورة من النصوص ، أو نلتمس معناها من خلال الاستخدام اللغوي ، وبالتدرج الزمني . يقول صاحب « لسان العرب » في ذلك : « أرض مجهولة : لا أعلام بها ولا جبال ، وإذا كان بها معارف أعلام فليست بمجهولة ، يقال : علونا أرضاً مجهولةً ومَجْهَلاً . . . وأنشد :

قلتُ لصحراءٍ خلاءٍ مَجْهَلٍ تفوَّلي ما شئتُ أن تفوَّلي (١)

أي : ضللي وأهلكي . وقال أيضاً : « وأرض مجهل : لا يهتدى فيها . . . وأنشد
سيبويه :

فلم يَبْقَ إلا كلُّ صفواء صفوةٍ بصحراء تيهٍ بين أرضين مَجْهَلٍ

الصفواء : حجر عريض أملس ، والمجهل : المَضَلَّة . . . وقيد أيضاً : « وناقاة
مجهولة : لم تحلب قط . أو غفلة لاسِمة عليها » (١) .

ونجد مثل هذه الصورة في قول سُوَيْد بن أَبِي كاهل :

فركبناها على مَجْهولها بصلاب الأرض فيهنَّ شَجَعٌ (٢)

أي : سرنا فيها على جهل بمسالكها وأعلامها . وقوله : بصلاب الأرض : أي
بخيل صلاب الحوافر ، وأرض الفرس : حوافرها ، والشَّجَع : جنون من النشاط .

★ - كنا قد نشرنا في العدد (٣٣ و ٣٤ ، ايلول - كانون الاول ١٩٨٩) القسم الاول من هذا البحث
وهذه تتمته . (المجلة) .

دراسات تاريخية ، ٢٧ و ٢٨ ، ايلول - كانون الاول ١٩٩٠

وغير خفي هنا ، أن هذا المفهوم المبكر للجهل ، الذي اشتقت منه الجاهلية ، يدل على الجهل بمسالك الأرض ، وتعذر الاهتداء أو المعرفة بالمفاوز بغير دليل يطمأن اليه؛ وهكذا يكون المرء في متاهة أو مضلّة . ولكن هل مفهوم الضلال والضياع هنا يتجه الى المعنى الحسي وحده ؟ أعني الى فكرة الاهتداء بالنظر ؟! لا ، بل يشمل الجهل ذهنياً ، وهذا ما ذهب اليه ابن فارس الرازي حين نصّ على أن (جهل) تنصرف أصلاً الى معنيين : « أحدهما خلاف العلم ، والآخر : الخفة وخلاف الطمأنينة » (٢) .

ويمكن أن نلتبس مصداق ذلك في قول الشاعر ابن أحرر :

ودهم تُصاديها الولائدُ جِلَّةٌ إذا جَهَلْتُ أجوافها لم تَحْكَمْ (٤)

تصاديها هنا : تداريها . وجهلت أجوافها : اشتد غليانها . وكذلك يقال : جهلت القدر : اشتد غليانها (٤) . وشبيه بهذا قول خراشة بن عمرو العبسي :

فلا قوم إلا نحن خيرُ سياسةٍ وخيرُ بقياتٍ بقينَ وأوَّلا
وأطولُ في دار الحِفَاطِ إقامةً وأربطُ أحلاماً إذا البقلُ أَجْهلاً (٥)

أربط أحلاماً : لا يجهلون . وأجهل البقل : حمل الناس على أن يجهلوا ، كأنّ نموّه ذكرهم بالثأر فاهتاجوا . ومن مثل ذلك قول النابغة الذبياني :

دعاكُ الهوى واستجھلتك المنازلُ وكيف تُصّابي المرء والشيب شاملُ (٦)

استجھلتك المنازل : استخففتك فتصابيت ، وذلك لا يلائم شيبك . وقال عمرو ابن كلثوم التغلبي :

الا لا يَجْهَلْنَ أحدُ علينا فنجهلُ فوق جهل الجاهلينا

فنجهل فوق جهل الجاهلينا ، معناه فنهلكه ونعاقبه بما هو اعظم .. وقال بعضهم : اراد بقوله « فنجهل » فنجازيه ، فسمّى المجازاة على الجهل جهلاً (٧) .

والتأمل هذه الشواهد وأمثالها يستخلص أن مدار الجهل فيها على الخفة وشدة الغضب ، وسرعة الحركة ، والهباج والغليان . أو ردة الفعل التي تبدو للفاحص المدقق كالمعكس الشرطي ، أو كالاستجابة الغريزية لمحرّض خارجي . فهذه جهالة التسرع والطيش والنزق ، حتى ليقترّب (جاهلها) من الجنون . وقد امتدّ مثل هذا التصوّر في نفوس بعضهم الى المرحلة الإسلامية ، كما يبدو في قول الفرزدق :

أحلامنا تزن الجبال رزانةً وتخالنا جنّاً إذا ما نجهلُ

ولكنه بدا جهلاً أقل حدة حين مازجه الحِلْم . وارتباط فكرة الحلم - لفظاً أو معنى - بالجهل قضية تستوقف من يتتبع نشأة هذا المفهوم العام للجاهلية ، وحين تلتبس شواهد هذا التصوّر في النصوص يبدو لك الحلم كالكايب الذي يحاول تهذيب النفوس والعقول وتقييد رعونة الأهواء والبِدَوَات ، وكأننا أمام جاهلية تحاول أن تكون أخف انفعالا ، وأقل تطرّفاً . وهذا أشبه بأن يكون اتجاهاً أعان عليه تحكيم العقل ، أو صقلته الخبرة المتحصلة من توالي الأيام والتجارب بتقدم السن ، فالجهل غالباً ما لازم الشباب ، قال النابغة الذبياني :

فإن يك عامرٌ قد قال جهلاً فإن مَظِنَّةَ الجهل الشباب (٨)

وعامر هذا هو عامر بن الطفيل العامري . ومظنة الجهل الشباب : يريد أن الشباب مقرون به الجهل ، ملازم له ، فمظنة الشيء : الأمر الذي لا يكاد يطلب فيه إلاّ وجد به ، وما جهل الشباب إلاّ بسبب من قلة المعرفة والخبرة ، وهذا - مع حميّة الشباب - يدفع الى الطيش والتهوّر ، في حين يكون العالم الحليم أكثر اناسة وتحسباً للعواقب .

ويقول عوف بن عطية التيمي (من تيم الرّباب) :

وقالت كُبَيْشَةُ من جهلها : أشياء قديماً وحليماً معاراً (٩)

أي : « تقدّم شيب رأسك ولا حلّم لك ، كأنّ حلّمك ليس معك » (٩) ، بل هو معار . وتكرّر الأمثلة النصيّة التي يستعين فيها العقل العربي على الجهل بالحلم ، أو يستحضر فيها الحلم الجهل فيبدوان مقترنين لأمر ما . من ذلك قول كعب بن سعد الغنوي :

ولن يلبث الجهّال أن يتَهَضُّوا أخا الحلم ما لم يستعن بجهول (١٠)

يتهضموا : يظلموا ويفصّوا . يقصد الحليم الذي لا يستعين بالجهول . ومن مظاهر هذا الحلم القرين للجهل فضيلة الصفح ، ولا يكون الصفح إلا من جهة الأقوى ، أو القادر ، فكانّ الحلم صار عندهم أرجح كفة ، وأدعى الى قبول التوم من الجهل ، نلّس ذلك في قول منضّرّس الفقعسي :

إنا لنصفح عن مجاهل قومنا ونقيم سائلة العدو الأضيّد (١١)
وقول علقمّاء بن أرقم :

وصفحت عن ذي جهلها ورفدته تصحي ولم تنصب العشرة زلّتي (١٢)

يعني إن زلّ كفى نفسه ولم يحمل عشيرته زلّته . وربما دعا الى مثل هذا

الصفح الإدراك الواقعي لضرر الجهل ، وتلمح شيئاً من ذلك في قول النابغة الذبياني :
بنو عامر خالوا بنى أسد
يا بؤس للجهل ضراراً لأقوام (١٢)

أي تركوهم ، فيا بؤساً لهم بجهلهم ، وشدّ ما كان الجهل ضراراً للناس ، كأنه شأفة يجب استئصالها ، أو مرض ينبغي للقوم أن يشفوا منه ولقد أدرك ذلك الشاعر الحكيم زهير بن أبي سلمى حين قال في مدح هرم بن سنان وقومه :

وفيهم مقامات حسان وجوههم
وإن جئتهم الفيت حول بيوتهم
واندية ينتابها القول والفعل
مجالس قد يشفى بأحلامها الجهل (١٤)

ومن أبرز صور التلازم بين الجهل والحلم قول مهلهل بن ربيعة يخاطب الحارث ابن عباد :

يا حار لا تجهل على أسياننا
إنا ذوو السورات والأحلام (١٥)

والسورات : جمع سورة ، وهي الرفعة والمنزلة ، والحدة أو السطوة ..

وللجاهلية وجه آخر طرّفاه الجهل والعلم بمفهومهما العام ، وخير ما يصور هذا الوجه الآية الكريمة : (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) (١٦) . وقد حفظ لنا الشعر شيئاً من ذلك كما في قول عنتره :

هلا سألت الخيل يابنة مالك
إن كنت جاهلة بما لم تعلمي (١٧)

وقول السموال بن عاديا (ويقال إن البيت منحول قاله عبدة الملك بن عبد الرحمن الحارثي) :

سلي إن جهلت الناس عنا وعنهم
فليس سواء عالم وجهول (١٨)

مفهوم الجاهلية يمثل طوراً متقدماً - إن جاز التعبير - بالقياس إلى ما وقفنا عليه من شواهد ؛ فهنا لا تطالعنا صورة النزق والحدة والانفعال التلقائي . أجل نتذكر قول صاحب « اللسان » : « أرض مجهولة : لا أعلام بها ولا جبال .. » ولكن للجهل والعلم هنا أفقاً أوسع ، ومدلولاً أعمّ يتعدى الاهتداء بالنظر إلى الاهتداء بالنظر والعقل ، كأنها جاهلية بلغت سن الرشd فصارت تحتكم إلى الفكر والتفكير ، أو تختبر بهما . ويتضح هذا المفهوم في الآية الكريمة : « يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف » (١٩) ، فالقصد هنا إلى الجاهل بحالهم ، لا الجاهل الذي هو ضد العاقل ، بل هذا الجهل يبدو تقيضاً للخبرة والعلم .. وأخيراً طبع مفهوم الجاهلية بطابع إسلامي ، وصارت تعرف من وجهة نظر إسلامية ، أو برؤية إسلامية . وقد قيد هذا ابن منظور حين عرض لقول النبي لأبي هريرة وقد عير رجلاً بأمه : « إنك امرؤ فيك جاهلية » (٢٠) ففسر مدلول الجاهلية

بأنه : « الحال التي كانت عليها العرب قبل الاسلام من الجهل بالله سبحانه ورسوله ، وشرائع الدين والمفاخرة بالانساب والكبر والتجبر وغير ذلك » (٢١) .

ولقد بدا المعيار الاسلامي لتقويم الجاهلية معتمدا خاصة على عدم المعرفة والعلم ، وعلى رفض ما للجاهلين من مظاهر لا يرضى عنها الاسلام ، ولا يقر الناس عليها ، ومن هنا جاء التعبير الاسلامي « الجاهلية الجهلاء » مؤكداً بالكلمة الثانية - الجهلاء - كل ما في الاولى من جهل ، بقولهم « ليلة ليلاء » . وترتب على هذا نمو فكرة ذم الجاهلية مرحلة وسلوكاً ووعياً ، كما يستنتج ذلك من حديث ابن عباس : « من استجهل مؤمناً فعليه إثمه » (٢٢) .

يستخلص من هذا أن مفهوم الجاهلية والجهل قد تطور من الدلالة اللغوية التي لا تخلو من عموم ، الى الدلالة الاسلامية التي أوشكت أن تضيفي عليه سمة المصطلح . والذي يعنيها من الجاهلية بصورة خاصة فكرة الربط بين اللغة العربية والتاريخ العربي ، أو تلمس الاصول الاولى التي كونت الشخصية العربية المستقلة ، أو الهوية الجماعية للعرب ، بلاداً وقوماً ، حتى نقف بالتالي على الخطوط العريضة لوضع اللغة سواء أكانت موزعة في لهجات ، أم موحدة يتخاطب بها العرب ويتفاهمون . ولكن ، ما يتصل بهذا الموضوع في ما يسبق العصر الجاهلي يكتنفه الغموض كما سبق القول ، الا أن بعض المصادر التاريخية ، بل ربما الكثير منها يؤكد أن أقسام شبة الجزيرة العربية كانت في حالة اتصال دائم فيما بينها أدى الى التقارب ، بل التجانس بين سكان هذه الاقسام في أكثر من جانب من جوانب حياتهم ، على الرغم من توزيعهم في تجمعات قبلية ، أو إمارات ، أو دويلات . ولعل أقدم الإشارات الصريحة الى العرب كمجموعة لها شخصيتها الجماعية ما عثر عليه من ذكر لهم في النقوش البابلية التي يرجع تاريخها الى القرن التاسع قبل الميلاد ، من ذلك نقش عثر عليه بين السجلات الخاصة بملوك الدولة الآشورية والدولة البابلية الحديثة في عهد الملك الآشوري شلمنصر الثالث (٨٥٨ - ٨٢٤ ق.م) . وفي هذا النقش حديث عن حملة قام بها الآشوريون ضد « يواتع ملك العربية » وذلك بقيادة آشور بانيبال (٢٣) . ومن ذلك أيضاً نص حول علاقة الآشوريين بالعرب يذكر أن الملك تجلات بيليسر الثالث (٧٢٧-٧٤٤ ق.م) قد اجتاح ١٥ مدينة للملك « ايديعلي » العربي ، وأنه قتل (غنم) من الملكة سمسى ، ملكة بلاد العرب ٣٠ ألف جمل (٢٤) . ويرد ذكر العرب كقوم تحت تسميات عديدة متقاربة في النصوص الآشورية من بينها Arabas , Aribi أو Arubu , Arybas التي ترد في نص آشوري (٧٠٣ ق.م) من عهد سنحريب كصفة أو كنسبة بمعنى عربي (٢٥) .

أما بالنسبة للبلاد أو السكان فإن صفة العربية تظهر « بشكل محدد ومتواتر في كتابات المؤرخ اليوناني هيرودوتس Herodotos في أواسط القرن الخامس قبل

الميلاد وتستمر من بعده سواء عند الكتاب اليونان أو الرومان أو البيزنطيين حتى ظهور الاسلام (٢٦) . وتسمية بلاد العرب Arabia عند هيرودوتس تعني - الى جانب شبه الجزيرة - كل القسم الداخلي من سورية (بادية الشام) وشبه جزيرة سيناء وصحراء مصر الشرقية التي تعرف أحيانا باسم صحراء العرب » (٢٧) . وفي فترات تاريخية لاحقة تعزز هذه التسمية أو الصفة العربية حتى تصبح هوية جماعية أو علما على البشر الذين يسكنون شبه الجزيرة العربية وما جاورها ، ثم تصبح بديلا من الهوية العشائرية أو القبلية الضيقة أو الخاصة ، والمهم في هذا المجال أن الشعور العام والعلاقات الخارجية والنظم الاجتماعية ولغة التفاهم ، كل ذلك أضفى عليهم التسمية العربية ، وميزهم من غيرهم حتى جعلهم يعتزون بهذه التسمية في بعض المناسبات كيوم ذي قار ويوم الفيل . . مما يشير الى أنهم كانوا يتكلمون لغة تكاد أن تكون معروفة عند الجميع وان اختلفت بعض لهجاتها قليلا عن بعض . ولعل هذا التصور هو الذي جعل علماءنا القدامى يقولون على الجزيرة العربية وأهلها انها: « تسمى جزيرة العرب لأن اللسان العربي فيها شائع وان تفاضل » (٢٨) . وهذا أمر متقبل ، لان العلاقات التجارية والاسواق الادبية ، واتخاذ مكة رمزا دينيا ، ونقطة التقاء موسمية - كل ذلك يحملنا على الاقتناع بوجود لغة عامة موحدة ، أو تكاد أن تكون كذلك ، تتكلمها طبقة واسعة في المناسبات العامة ، وعند استخدام لغة الشعر والامثال والخطب استخداما فنيا ينحي جانبا اللهجة المحلية الخاصة المستعملة في الحديث اليومي والمخاطبات . . تلك اللغة الفنية العالية كانت اذن وليدة الاختلاط والانتقال والتعامل والأخذ والعطاء وتحكيم الذوق في انتقائها كخلاصة مزيج من خصائص معظم اللهجات العربية . وربما لأن المكين كانوا أكثر تعاملًا مع غيرهم ، تجاريا ودينيا وأديبا - كانت بيئتهم ، حكما مهية ومناسبة لاحتضان اللغة الموحدة التي نزل بها القرآن الكريم فيما بعد ، مما دفع بعض المؤرخين الى التعجيل بالقول إن القرآن نزل بلغة قريش حصرا ، وما ذلك بدقيق تحقيقا ، انما نزل بلغة مصطفاة من تلك اللهجات كلها ، متأثرة بها كلها ، متضمنة مظاهر من خصائصها ، وبها خوطب أصحاب تلك اللهجات جميعا ، وبها قرؤوا القرآن وفهموه ، وأنصتوا اليه في خشوع وإيمان عميقين . وفي هذا الصدد يقول الدكتور ابراهيم أنيس على تلك اللغة أنها : « أقدم ما نستطيع تصويره في شأن شبه الجزيرة العربية ، هو أن نتخيلها وقد انتظمتها لهجات محلية كثيرة ، انعزل بعضها عن بعض ، واستقل كل منها بصفات خاصة ، ثم كانت تلك الظروف التي هيأت لبيئة معينة ، في شبه الجزيرة ، فرصة ظهور لهجاتهم ازدهارها، والتغلب على اللهجات الاخرى » (٢٩) .

وربما كان للعامل التاريخي كبير الاثر في تمركز العربية حول مكة وما جاورها ، ونعني بهذا العامل أن العرب في الجنوب كانوا قد غزوا من قبل الاحباش في اواسط

القرن الرابع الميلادي ما يقرب من عشرين عاما . ثم عاد هؤلاء فاستولوا سنة (٥٢٥ م) على اليمن نحو خمسين سنة ، أي أن العرب صاروا أمام خطر في الجنوب . وكان عرب الشمال مهديين بالروم والفرس من الشمال والشرق . وأمام هذين الخطرين الخارجيين تنامت فكرة التمرکز والتجمع العربي في وسط الجزيرة العربية ، وبدأت شخصية العرب اللغوية تنمو وتتکامل بالتجاور والاستقرار والاستقلال في شبه وحدة متجانسة أو متحالفة لدرء خطر أعداء الجنوب والشمال . ويبدو أن لهجات القبائل تقاربت وتمازجت في ظل هذا الاستقرار النسبي مما ساعد على قيام حركة شعرية متنامية بلغة أدبية عامة هي اللغة العربية الفصحى التي وصلتنا بعد صقل وتطور ، وسعة اختلاط وتفاعل . ولا يعني هذا أن العرب كانوا قبل ذلك منتشرين وموزعين في جماعات منعزلة تفصل بعضهم عن بعض حدود منيعة يصعب تخطيها ، أو كان بينهم تفاوت لغوي كبير يحول دون التفاهم بلغة واحدة ، أو يحتاج الى مترجمين ، فإن المصادر المعنية بهذا الامر لم تقرر ذلك صراحة ، وإن المصادر العربية العليا التي تصور طبيعة الحياة اللغوية القديمة « كالشعر والقرآن والحديث » قلما تشير الى ذلك التفاوت اللغوي الحاد بين عرب الشمال والجنوب مثلا ، بل إن ذلك التقسيم الى عدنانيين وقحطانيين كان تقسم انساب واخوة يرجعون الى اصل واحد ، ولم يكن تقسيما يستند الى حقائق الاختلافات اللغوية اذا اردنا تحري الحقيقة في هذا الجانب خاصة . صحيح انه في أقاصي جنوب شبه الجزيرة العربية (داخل اليمن وظفار وحضرموت) . . كانت « الحميرية » هي الغالبة في التخاطب اليومي ، ولعل هذا ما جعل أبا عمرو بن العلاء يقول :

« ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ، ولا عربيتهم بعربيتنا » (٢٠)

ولكن مثل هذا الحكم لا يخلو من مبالغة اذا ما فهمناه بهذا القطع التام وبمعزل عن قصته أو مناسبته التي يسوقها السيوطي عن ابن دريد فيقول :

« خرج رجل من بني كلاب أو من سائر بني عامر بن صعصعة الى ذي جدن (من اقبال حمير) فاطلع الى سطح ، والملك عليه ، فلما رآه الملك اختبره ، فقال له : ثب ، (أي : اقم) فقال : ليعلم الملك اني سامع مطيع ، ثم وثب من السطح . قال الملك : ما شأنه ؟ فقالوا له : ابنت اللعن ! إن الوثب في كلام نزار : الطَّفَر (القفز) ، فقال الملك : ليست عربيتنا كعربيتهم » (٢١) .

ومتأمل هذه القصة — كما سيق — يلحظ أنها لا تخلو من صبغة الوضع ، أو التعمل والتكلف ، من ذلك : فلما رآه الملك اختبره . ففيم كان هذا الاختبار ؟! أي اللغة ليعرف مدى إلمامه بكل مفرداتها أو الفروق بين لغتيهما ؟ أم في الشجاعة ليرى إن كان الرجل يجرؤ على الوثوب ؟ ثم : إن كان يختبره فلم استغرب فعلته قائلا : ما شأنه ؟

وبعد ، فمجمال الخبر يدل على التفاهم اللغوي ، لا التفاوت اللغوي ، يستخلص هذا من قول الرجل : ليعلم الملك أنني سامع مطيع ، وفي قول الملك : ما شأنه ؟ وفي قول القوم : إن الوثب في كلام نزار : الطفر . . ثم في قول الملك : ليست عربيتنا كعربيتهم (إلا إذا كان هذا الخبر مترجما عن الحميرية ! . وما أحد قال ذلك) .

وفي قول القليل هناك رواية أخرى هي : (ليست عندنا عربية كعربيتهم) ويرجح ابن سيده تلك الرواية بقوله : « وهو الصواب عندي ، لأن الملك لم يكن لينخرج نفسه من العرب » (٢٢) .

وإن أخذنا بصحة هذا الخبر بما فيه ، فإن ذلك ليس دليلاً على اختلاف لغوي حاسم ، لأن الحوار كان مفهوماً كما هو واضح من السياق ، ولكن الرجل لم يفهم مدلول لفظة « ثب » التي لا يمكن أن تكون - وحدها - معياراً للحكم بوجود لفتين مختلفتين ، وإلا قلنا بمثل هذا الاختلاف عندما لم يعرف عمر بن الخطاب معنى « التخوف » في قوله تعالى : (أويأخذهم على تخوف) (٢٣) ، أو عندما لم يعرف معنى « الأب » في قوله تعالى : « وفاكهة وأبنا » (٢٤) . . بل كل ذلك عربي ، وعبرة : « ولا عربيتهم كعربيتنا » التي تتناقضها كتب اللغة عن القليل اليمني وعن أبي عمرو بن العلاء هي عربية أيضاً لأن أحداً منهما لم يقل « ولا عربيتهم كحميريتنا » ، والأمر لا يعدو أن يكون لونا من اختلاف اللهجات في الجماعة الواحدة « ذلك لأن العرب وإن كانوا كثيراً منتشرين ، وخلقاً عظيماً في أرض الله غير متحجرين ولا متضاغطين ، فانهم بتجاورهم وتلاقهم وتزاورهم يجرون مجرى الجماعة في دار واحدة ، فبعضهم يلاحظ ويراعي أمر لفته ، كما يراعي ذلك من منهم أمره » (٢٥) . على ما يقول ابن جني . ولعل هذا من أفضل ما قيل في الموضوع .

وربما كان من المفيد هنا أن نقف على وجهات نظر المستشرقين وآرائهم في تصورهم لظروف تكوين العربية الفصحى في إطار العصر الجاهلي وبيئاته ولهجاته اللغوية حتى نقترب ذلك التصور العام إلينا بتضافر الآراء والاجتهادات . وملخص هذه الاجتهادات هو أن العربية الفصحى لهجة مركبة من لهجات القبائل التي كانت منتشرة في الحجاز ونجد وإقليم الفرات وغيرها من المناطق المشهورة في الجزيرة العربية ، وهي لهجات كانت وجوه الاختلاف بينها قليلة مما ساعد على تركيب نواة اللغة العامة منها ، كما يرى المستشرق « نولدكه » . على حين يذهب « جويدي » إلى أنها ليست لهجة قبيلة بعينها ، ولكنها مزيج من لهجات قبائل نجد ومن جارهم ، ويقول : « ويعتقد المرء أن لغة الشعر في عهد ما قبل الإسلام هي لغة موحدة في جميع الأمكنة التي سكنها الجاهليون » (٢٦) . ويذهب « نالينو » إلى أنها تولدت من إحدى اللهجات النجدية ، وتم تهذيبها أيام حكم كنده في منتصف القرن الخامس ، ثم صارت اللغة الأدبية

السائدة بين العرب . ويذهب « هارتمان » و « فولرز » الى أنها لهجة اعراب نجد واليمامة بعد ان ادخل الشعراء عليها تغييرات كثيرة . في حين يرى « بروكلمان » انها لغة فنية قائمة فوق اللهجات وإن غدتها جميع اللهجات ، وانها استوعبت كل خصائص الأصل اللغوي السامي اكمل استيعاب وإن لم تحتفظ في جميع نواحيها بأقدم الصيغ والقوالب . وأخيراً يرى « بلاشير » انها لغة وسطى لها خصائص اللهجات في وسط الجزيرة وشرقيها ، وهي لهجات القبائل التي كانت تنزل في منطقة محصورة بين مكة والبحرين وضواحي المدينة حتى شمال الحيرة ، وهي قبائل قيس وتميم واسد وهذيل وبعض كنانة وبعض طيء ، وأيضاً قريش (٢٧) .

وعلى الرغم مما تنطوي عليه هذه الآراء من اعتدال ، وتركيز حول دائرة بشرية وجغرافية معلومة ، فان بعضها يبدو متأثراً بتقسيمات اللغويين العرب المتأخرة التي صنفت مراتب الفصاحة في اللغة تبعاً لمعايير تتصل بالحن وبالاحتجاج ، وبالمكانة الدينية لمكة وقطانها ، وتلك التصنيفات كانت تتخذ من قضية الاختلاط بالاعاجم مقياساً للأصالة او السلامة اللغوية . وتأثراً بهذه الاعتبارات المتأخرة تردّد في آراء المستشرقين تحديدات جغرافية يدخل فيها عزو نشأة العربية الفصحى الى قبائل بأعيانها ، على جهة الحصر ، من بينها (بعض كنانة) و (بعض طيء) ؛ وكان بقية أبناء القبيلتين كانوا يتكلمون لغة أخرى حين ابتعدوا قليلاً عن مركز استيطان القبيلة الأصلي .

وثمة مسألة مهمة أخرى تلاحظ في آراء أولئك المستشرقين هي مصطلح « اللهجة » او اللهجات ، فالعربية عندهم « تركبت » من لهجات ، او هي « مزيج » من اللهجات او « تولدت » من إحدى اللهجات النجدية ، او « غدتها » جميع اللهجات ، او لها « خصائص » اللهجات . . إلا ما كان من « بروكلمان » الذي رأى انها « لغة فنية » فوق اللهجات ، وإن غدتها اللهجات كلها . ولعل هذا هو الأقرب الى القبول في ما يتصل « بفنية » العربية ، تلك الفنية التي جعلت منها على أيام الجاهلية « لغة مقدسة » ، أي غير شعبية بل خاصة بالصفوة من المتحدثين باللسنة قبائلهم ، وبالكهنة والعرافين والمنجمين والاطباء والخطباء والشعراء ، في المناسبات « الرسمية » ، وأن هؤلاء - ما عدا قريشا وبعض القبائل التي حافظت على هذه اللغة المقدسة - كانت لهم لكنات ووطانات وعاميات في اقوامهم (٢٨) .

وإننا لنقف على إشارات وشواهد من اقوال القدماء تؤيد ذلك ، كقول الفراء : « كانت العرب تحضر الموسم في كل عام ، وتحج البيت في الجاهلية ، وقريش يسمعون لغات جميع العرب ، فما استحسّنوه من لغاتهم تكلموا به ، فصاروا افصح العرب ، وخلّت لغتهم من مستبشع اللغات ومستقبّح الألفاظ » (٢٩) .

فالعرب تلتقي كل عام ، وقريش يسمعون (لغات جميع العرب) ، ويستحسنون لغة مصطفة ، منقاة من شوائب اللهجات المحلية . . كما يسوق لنا السيوطي قولاً مشابهاً ، يقول : « كانت العرب ينشد بعضهم شعر بعض ، وكل يتكلم على مقتضى سجيته التي فطر عليها . ومن هنا كثرت الروايات في بعض الابيات » (٤٠) .

وينبغي أن يستوقفنا قوله : أن العرب كانت (ينشد بعضهم شعر بعض) أي أن لغة مشتركة فوق « مستوى » العامة من العرب كانت محل تداول في الإنشاء الأدبي ، لغة فوق لهجات التخاطب ، وفوق لغة الحياة اليومية لدى القبائل الكثيرة (٤١) ، ولكنها مع ذلك كانت مفهومة عند عامة تلك القبائل ، قاصيها عن قريش ، ودانيها منها ولهجات تلك القبائل على اختلافها لم تكن مستغلة متأبئة على الفهم ، بل كانت كلها — كما يقول ابن جني — حجة ، والناطق بها — على قياس لغة من لغات العرب — مصيب غير مخطيء (٤٢) ، مع الإقرار بوجود لهجة أفضل . وفي ضوء هذا كله يمكننا أن نتفهم قول السيوطي السابق « ومن هنا كثرت الروايات في بعض الابيات » على أنها روايات تأخذ بأعلى مراتب الفصاحة ، وتراعي السلامة اللغوية التي كانت محل إجماع وقبول ، والا استنكرت ، أو صنفت مع « اللغات » أو اللهجات .

وعلى ذلك ، فما تلك اللهجات التي السح على ذكرها المستشرقون والمحدثون والقدماء ، وأطالوا الحديث عنها بصفتها تنطوي على ظواهر لغوية تختلف عن تلك اللغة المثالية المشتركة ؟!

الحواشي

- | | | | |
|-----|--|------|--|
| (١) | اللسان / جهل . | (٧) | شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات : |
| (٢) | المفضليات : ١٩٣ (تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون ، طه (دار المعارف بمصر) ، واللسان / جهل . | (٨) | ديوانه : ١٠٩ ، واللسان / ظنن . |
| (٣) | معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس / جهل تحقيق عبد السلام هارون طه البايي الحلبي (القاهرة ١٩٦٩) . | (٩) | المفضليات : ٤١٣ ، المتن والحاشية . |
| (٤) | معجم أساس البلاغة / جهل ، تأليف الامام جار الله الزمخشري ، تحقيق عبد الرحيم محمود (دار المعرفة ، لبنان ١٩٧٩) . | (١٠) | الاصمعيات : ٧٦ لعبد الملك بن قريب الاصمعي ، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر ، وعبد السلام محمد هارون ، ط ٤ ، (دار المعارف بمصر ١٩٧٦) . |
| (٥) | المفضليات : ٤٠٥ . | (١١) | اللسان / جهل . |
| (٦) | ديوان الثابتة الديباني : ١١٥ ، (تح : محمد أبو الفضل ابراهيم) (دار المعارف بمصر ١٩٧٧) . | (١٢) | الاصمعيات : ١٦٢ . |
| | | (١٣) | ديوانه : ٨٢ . |

- (١٤) شرح ديوان زهير : ١١٣ ، صنعة أبي العباس
ثعلب ، (ط القاهرة ١٩٤٤) .
- (١٥) الاصمعيات : ١٥٦ .
- (١٦) الزمر / ٣٩ .
- (١٧) شرح المغلقات السبع للزوزني : ٥٩ ، ط ٢
(القاهرة ١٩٥٩) .
- (١٨) حساسة أبي تمام : ١١٠/١ ، تح أحمد أمين
وعبد السلام هارون ، ط ٢ ، (مطبعة لجنة
التأليف والترجمة ، القاهرة ١٩٦٧) .
- (١٩) البقرة / ٢٧٣ .
- (٢٠) صحيح البخاري : ٤/١ - ١٩/٨ (طبعة دار
الشعب بالقاهرة) .
- (٢١) اللسان / جهل .
- (٢٢) جاءت عبارة : (قوم يجهلون) في خمس آيات ،
و (الجاهلون) في ست آيات ، و (يعملون
السوء بجهالة) في ثلاث آيات . وغالبا
ما يتجه المدلول في هذه الآيات الى العقول
التي لم تنعم بنور العلم والمعرفة . وذكرت
كلمة (الجاهلية) في أربع آيات ، بدت
مذمومة في ثلاث ، ودلت على فترة زمنية في
الآية : (وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج
الجاهلية الاولى) ولا يخفى ما فيها من ذم .
- (٢٣) العرب في العصور القديمة : ١٥٢ للدكتور
لطفي عبد الوهاب يحيى (دار النهضة
العربية - بيروت ١٩٧٩) وانظر الصفحات
٣٦ - ٣٧ ، ٢٢٩ ، ٢٨٠ ، ٤٠٣ .
- (٢٤) نفسه : ١٥٦ ، وص ٣٦١ . وانظر :
(الحضارات السامية القديمة : ٢٠٢ تأليف
سبتيانو موسكاتي ، ترجمة الدكتور يعقوب بكر
(دار الرقي ، بيروت ١٩٨٦) .
- (٢٥) نفسه : ١٩٦ .
- (٢٦) العرب في العصور القديمة : ٣٦ - ٣٧ .
- (٢٧) نفسه : ١٩٨ ، وانظر الحاشية ٢ في الصفحة
نفسها . ولعل أول اشارة أو ذكر لشبه
الجزيرة العربية ورد في الاوديسة لهوميروس
(القرن التاسع ق.م) وكذا في بعض مسرحيات
(ايسخولوس) في القرن الخامس قبل الميلاد .
- (٢٨) معجم البلدان لياقوت الحموي ، مادة :
جزيرة العرب (مطبعة السعادة بالقاهرة
١٠٦) . وانظر صفة جزيرة العرب للهمداني :
١ ، تح محمد بن عبد الله بن بليهد النجدي
(مطبعة السعادة ١٩٥٣) وتح محمد بن علي
الاكوع ، (دار اليمامة ، الرياض ١٩٧٤) .
- (٢٩) مستقبل اللغة العربية المشتركة : ٧ (ط
القاهرة ١٩٦٠) للدكتور ابراهيم أنيس .
- (٣٠) طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي :
١١ (دار المعارف بمصر) .
- (٣١) الزهر في علوم اللغة العربية وأنواعها
للسيوطي : ٣٩٦/١ ، وانظر الخبر بشيء من
الاختلاف اللفظي في « الصحابي في فقه
اللغة » لابن فارس : ٥١ ، تح الدكتور
مصطفى الشويبي (بيروت ١٩٦٣) .
- (٣٢) انظر لسان العرب / ٢٩١/٢ (ط بولاق) .
- (٣٣) سورة النحل / ٤٧ .
- (٣٤) سورة عبس / ٢١ ، وانظر : « مقدمتان في
علوم القرآن » : ٢٧١ (لابن عطية ومجهول)
نشر وتصحيح آرثر جفري (مكتبة الخانجي ،
القاهرة ١٩٥٤) .
- (٣٥) الخصائص : ١/٤١٥ (ط . دار الهلال
بمصر ١٣٣١ هـ) .
- (٣٦) محاضرات في تاريخ اليمن والجزيرة العربية
قبل الاسلام : ٥٥ ، اغناطيوس غويدي ،
ترجمة ابراهيم السامرائي (دار الحدادة ،
بيروت ١٩٨٦) .
- (٣٧) انظر : دراسات في الشعر الجاهلي : ٥٩ -
٦٠ للدكتور يوسف خليف (القاهرة ١٩٨١) ،
تاريخ الادب العربي لكارل بروكلمان : ١/٤٢
(ط دار المعارف) ، تاريخ الادب العربي -
العصر الجاهلي : ١٣١ - ١٣٢ للدكتور
شوقي ضيف (ط ٣ دار المعارف) .
- (٣٨) وانظر : كلام العرب : ١٥٨ - ١٥٩ للدكتور
حسن ظاظا (اسكندرية ١٩٧١) .
- (٣٩) الزهر : ٢٢١/١ ، وانظر : فقه اللغات
السامية لبروكلمان : ٢٩ حيث يقول :

- (٤٢) الخصائص : ١/٧٧ (ط دار الهلال) .
ويقول اغناطيوس غويدي :
« ... ان أمراً القيس ينتسب الى قبيلة
(كنده) وهي في الاصل من العربية الجنوبية
من قبائل (قنبان) ، وأن النابغة من قبيلة
(ذبيان) وهذه القبيلة من غطفان ، أي أنها
من مضر ، وأن عمرو بن كلثوم من تغلب
المتحدر من ربيعة ، غير أن شعر هؤلاء
جميعهم يفهم منه لغة واحدة » محاضرات في
تاريخ اليمن : ٥٥ (مرجع سابق) .
- (٤٠) المزهر : ١/٢٦١ .
(٤١) انظر أيضا : دراسات في فقه اللغة : ٥١
للدكتور صبحي الصالح (بيروت ١٩٦٢)
و « في اللهجات العربية » : ٤١ للدكتور
ابراهيم أنيس (القاهرة ١٩٥٢) و « فصول
في فقه العربية » : ٧٤ ، ٦٩ للدكتور
رمضان عبد التواب (القاهرة ١٩٧٣) .

استدراك

أحيلت الي رسالة القاريء السيد مهند الحسيني التي يقول فيها انني في البحث الذي نشر في العديدين
٣٣ - ٣٤ لأم ١٩٨٩ - قد (صنف اللهجة العربية مع الفرع الجنوبي الغربي) ثم يقول : « الا ان
د. مسعود بوبو عاد في الصفحة ١٧١ ليقول : بأن أشهر لهجات اللغة العربية الشمالية هي العربية
البائدة » . ثم يضيف : « وهنا نلاحظ أنه بينما صنف اللهجة العربية ضمن الفرع الجنوبي الغربي يعود
ليتناقض مع نفسه ليصنفها مع الخط الآرامي الذي هو بدوره من الفرع الشمالي الغربي .. » .

ولا تناقض البتة ، انما القاريء الكريم لم يدقق في قراءة البحث ، فالامر غاية في الوضوح والجلاء .
اذ جاء في الصفحة (١٧٠) من البحث العنوان :

٢ - الفرع الجنوبي الغربي . ويقسم الى قسمين أساسيين هما :

الحبشية ، والعربية . والعربية [هذه] تقسم الى : جنوبية وشمالية .

جنوبية

فهذه العربية الشمالية قسم من انشعاب الفرع الجنوبي الغربي الى
شمالية

وهذه - عندما عرف أصحابها الكتابة - كتبت آثارها المبكرة على أيدي جنوبيين يمينيين عرفوا الخط
المسند ، وآراميين وأنباط شماليين هم الذين أخذت عنهم أخيرا الخط . ولا يخفى أن الكتابة أو الخط
شيء ، واللهجة شيء آخر .

د. مسعود بوبو